

علم التصوف وتركية الأنفس (التخلية، والتحلية، والتجلية)



أهداف الدرس

1. أن أتعرف حقيقة «التخلية» و«التحلية» و«التجلية».
2. أن أثبت العلاقة بين «التخلية» و«التحلية» و«التجلية».
3. أن أتمثل التخلية والتحلية في تركية نفسي.

تمهيد

عرف التصوف تطورا علميا وعمليا أثر طرقا ومصطلحات غايتها تحقيق تركية النفس وتيسير الوصول إلى الله تعالى، وقرب أرباب الطريقة ذلك باصطلاحات ينطلقون منها ومراحل يقطعونها، وتخلية يتهيئون بها، وآداب يتحلون بها، فجعلوا التخلية قبل التحلية وصولا إلى التجلية.

فما التخلية؟ والتحلية؟ والتجلية؟ وما آثارها في تركية النفس؟

نص الانطلاق

قال الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله-: «الإخلاص هو: إفراد العمل لله من غير حرف ولا حظ، فإذا حقق الإخلاص استقبله باب التخلية وهي التطهير من العيوب الباطنة، وهي لا تنحصر، لكن من ظفر بالشيخ أطلعه عليها، وعلمه أوديتها، فإذا حقق «التخلية» استقبله باب «التحلية» وهي: الاتصاف بأنواع الفضائل، كالصبر، والحلم، والصدق، والطمأنينة، والسخاء، والإيثار، وغير ذلك من أنواع الكمالات. فإذا حقق الإخلاص والتخلية والتحلية فقد حقق بيت الطريقة، ثم يستقبله بيت الحقيقة. فأول ما يقرع باب المراقبة، وهي: حفظ القلب والسر من الخواطر الردية، فإذا تطهر القلب من الخواطر الساكنة، استشرف على باب المشاهدة، وهي: محو الرسوم في مشاهدة أنوار الحي القيوم، أو تلطيف الأواني عند ظهور المعاني، فإذا دخل باب المشاهدة وسكن فيها استقبله باب المعرفة، وهي محل الرسوخ

والتمكنين ، وهي الغاية والمنتهى ، فبيت الحقيقة هو مسجد الحضرة الربانية ، وما بقي بعدها إلا الترقى في المقامات ، وزيادة المعارف والكشوفات أبداً سرمداً ، منحنا الله من ذلك حظاً وافراً بمنه وكرمه» [البحر المديد ، 1/175].

الفهم

استخلاص المضامين :

– أستخلص من النص ما تتحقق به التخلية والتحلية .

الشرح :

– **المعرفة عند الصوفية:** تخلية السر عن كل إرادة ، وترك ما عليه العادة ، وسكون القلب إلى الله تعالى .

– **الحقيقة:** شهود الحق في تجليات المظاهر .

– **الطريقة:** إصلاح الضمائر لنتهاء لإشراق أنوار الحقائق .

التحليل

عني أرباب التصوف ببيان التخلية والتحلية وما يحققهما في طريق السير إلى الله تعالى تحقيقاً لصفاء النفس وتزكيتها ، وطمعا في نيل ثواب الله الموعود به في قوله تعالى ﴿فَدَا بَقْلَعٍ مِّنْ زَكَّيَاتٍ ۚ وَفَدَا خَابَ مِّنْ دَسَائِلَةٍ﴾ [الشمس: 9-10] ومعلوم أن طريقة التصوف «إنما تتم بعلم وعمل ، وحاصل علومهم قطع عقبات النفس ، والتنزُّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله» [المنقذ من الضلال ، ص 170].

أولاً: التخلية

التخلية مصدر خلى بمعنى ترك وأعرض «وأصله يدل على تعري الشيء من الشيء» [مقاييس اللغة، 2/204]. وحقيقة التخلي عند الصوفية الإعراض عن العوارض المشغلة عن الحق ظاهراً وباطناً ، واختيار الخلوة وإيثار العزلة ، وملازمة الوحدة ، وتطهير النفس من الرذائل ، فالتخلية إعراض

عن الأشغال المانعة للعبد عن الله ، وأولها: مشاغل الدنيا ، وثانيها: أن يقطع عن قلبه إرادة العقبي ، وثالثها: أن يُخلي السر من متابعة الهوى . ورابعها: أن يُعرض عن مصاحبة الخلق ، ويُخلي القلب من التفكير فيهم . قال الشيخ العربي الدرقاوي - رحمه الله - «ولا شك أن العزلة إذا كانت بشروطها تنتج خالص العلم ، وخالص العلم ينتج خالص العمل ، وخالص العمل ينتج خالص الحال» [مجموعة رسائل مولاي العربي الدرقاوي ، ص 180] فالإخلاص به تصح وتصلح الأعمال ويتحقق الترقى في مدارج الكمال ، قال الشيخ ابن عجيبة - رحمه الله - «فإذا حقق الإخلاص والتخلى والتحلية فقد حقق بيت الطريقة ، ثم يستقبله بيت الحقيقة» فالمرحلة الأولى أن يُخلي السالك نفسه من كل قبيح ، ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الثانية التي هي التحلية .

ثانيا: التحلية

التحلية هي التزين بالفضائل والأعمال الصالحة ، والانتساب إلى قوم محمودين في القول والعمل ، وتشبه بأحوال الصادقين في أقوالهم وأفعالهم . والمتحلي بما هو له صادق ، والمتحلي بما ليس له لا بس ثوب زور؛ فالتحلية تجميل القلب بالصفات الحسنة ، وتزيينه بالفضائل والأخلاق الحميدة ، وبعد تحقق التخلية والتحلية بالتخلي عما هو قبيح والتحلي بما هو صحيح يأتي الرضا التام والتخلق بأخلاق الله «فإذا حقق التخلية استقبله باب التحلية» وكل ذلك يتحقق أثره بحسب القرب والبعد والصدق والإخلاص والمواظبة على العمل ، قال الشيخ ابن عجيبة - رحمه الله - «وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين باعتبار القرب والبعد: فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس ، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين ، والعلماء العابدين المجتهدين ، وهم متفاوتون في القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق ، وعلى قدر التخلية والتحلية . ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه ، وهم أهل الشواغل والشواغب ، والعلائق والعوائق . وعلامة القرب: وجود حلاوة المعاملة ، كلذيق المناجاة ، والأنس به في الخلوات ، ووجود حلاوة القرآن والتدبر في معانيه ، حتى لا يشبع منه في كل أوان . وعلامة البعد: فقد الحلاوة المذكورة ، وعدم الأنس به في الخلوة ، وفقد حلاوة القرآن ، ولو كان من أعظم علماء اللسان» [البحر المديد 26/3] .

بم تكون التخلية والتحلية؟

للتخلية والتحلية طرق يتوصل بها إليهما ، كالإيمان ، والتوبة ، والإنابة ، والرجاء ، والزهد ، وغير ذلك مما هو معلوم لدى أهل الطريقة ، قال أبو حامد الغزالي - رحمه الله - «التوبة والصبر

والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة، وهو تخلية القلب عن غير الله، وأوله الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجنة، والنار، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما، ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا، وفي المال، والجاه، وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه، فكل ذلك مقدمات تطهير القلب، وهو أحد ركني المحبة، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «الظهور شطر الإيمان» [صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء]. [إحياء علوم الدين، 4/316].

تفاوت المراتب في التخلية والتجلي:

الدخول في التخلية لا يعني بلوغ المنزل، وكلّ ينال على قدر صدقه وإخلاصه وتوفيق ربه له «لأن ما كان ذوقاً ووجداناً لا يختلف، بل يجده كل من له ذوق سليم. نعم تتفاوت أدواقهم على حسب مشاربهم، ومشاربهم على حسب إعطائهم نفوسهم وبيعها لله، وتتفاوت أيضاً بحسب التخلية والتفرغ، وبحسب الجد والاجتهاد، وكلهم على بصيرة من الله وبينه من ربهم» [البحر المديد، 3/497].

ثالثاً: التجلية

يدور معنى التجلي في اللغة على الظهور والانكشاف، قال ابن فارس -رحمه الله-: «الجيم واللام والحرف المعتل أصل واحد، وقياس مطرد، وهو انكشاف الشيء وبروزه» [مقاييس اللغة، 1/417]. ويقصد به عند الصوفية «إشراق أنوار إقبال الحق على قلوب المقبلين عليه» وقيل «ما يظهر للقلوب من أنوار الغيوب». [معجم مصطلحات الصوفية، ص 173]. فالتجلي اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغلك عن الحق، ومجمل ما قيل فيه دال على أن التجلي هو تأثير أنوار الحق بحكم الإقبال على قلوب المقبلين الجديرين بأن يروا الحق بقلوبهم، قال الشيخ ماء العينين -رحمه الله- «التجلي عبارة عن مطلق الظهور في الجملة، وأول التجلي للعبد في بدايته بالإيثار، وبرسم الاعتبار والاستبصار، ثم تجليه له في حالة التيسار بمعاني الصفات وحقائق الأسرار، ثم تجليه له في نهايته بعظمة الذات، المؤذنة بفناء الرسوم والسمات، فتجلي الآثار منعش، وتجلي الصفات معطش، وتجلي الذات مدهش» [الإيضاح لبعض الاصطلاح، ص 8].

مراتب التجلي: التجلي ليس على مرتبة واحدة، فكل يقتبس على قدر نوره، وفضل ربه عليه قال الشيخ ماء العينين «وربما كان أول التجليات ما يكشف به من آلاء الله المعبر عنها بعالم

الملكوت بعد مجاورة الكشف في عالم الملك ، ثم تجلي المكاشفات بعالم الحقائق ، فينتقل من عالم الإيماء إلى عالم الحقائق ، فيتجلى عليه بالمكاشفة بما لا تستطيع الأقلام وضعه ، ولا الطروس حمله ، ثم ينتقل إلى عالم المعاني المعبر عنه بعالم الجبروت ، فيتجلى عليه بالمكاشفة بعلوم الصفات ، وأجناس العوالم الروحانية فيكون عند ذلك واصلا موصولا مكرما دخل الحضرة واكتسى الكمال والنضرة» [الإيضاح لبعض الاصطلاح ، ص 8]. وتتفاوت رتب التجلي بتفاوت أوصاف أصحابه ، قال أبو حامد الغزالي «كل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجد فهو رتبة من الوصول ، ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال ، وهو رتبة في التجلي ، فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع الله تعالى ، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار ، وهذه رتبة في الوصول ، ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكشف قلبه من مطالعة الجلال والجمال ، وهذا تجلي بطريق الصفات وهو رتبة في الوصول ، ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مستمليا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغيبا في شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين ، وهذه رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين ، ويكون من ذلك في الدنيا للخواص لمح وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قاله ، وهذا من أعلى رتب الوصول» [مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، ص 106]. وقد ضرب الإمام الغزالي مثلا لتقريب التفاوت في مراتب التجلي بالمعرفة والنبات؛ إذ قال «وَلَمَّا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ كَانَ التَّجْلِي أَيْضًا عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ فَاخْتِلَافُ التَّجْلِي بِالْإِضَافَةِ إِلَى اخْتِلَافِ الْمَعَارِفِ كَاخْتِلَافِ النَّبَاتِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى اخْتِلَافِ الْبُذُورِ إِذْ تَخْتَلِفُ لَا مَحَالَةَ بِكَثْرَتِهَا وَقِلَّتِهَا وَحُسْنِهَا وَقَوَّتِهَا وَضَعْفُهَا» [معارج القدس في مدراج معرفة النفس ، ص 160].

أحوال التجلي: التجلي على ثلاثة أحوال؛ تجلي ذات ، وهي: المكاشفة ، وتجلي صفات الذات ، وهي: موضع النور ، وتجلي حكم الذات ، وهي: الآخرة وما فيها .

آثار التجلي: التجلي قد يكون بالأفعال ، أو الصفات ، أو الذات ، فالتجلي بطريق الأفعال يؤدي إلى صفو الرضا والتسليم ، والتجلي بطريق الصفات يكسب الهيبة والأنس ، والتجلي بالذات يكسب الفناء والبقاء .

التقويم

1. أعرف المصطلحات التالية «التخلية» «التحلية» «التجلية».
2. أبين علاقة التخلية بالتحلية.
3. أذكر آثار التجلية وفوائدها السلوكية والعملية.

الاستثمار

قال الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- «التفاضل بين الرجال إنما يكون بالعلم والحال؛ فمن قَوِيَ علْمُه بالله كان أعظم قدرا عند الله، والعلم الذي به الشرف عند الله هو العلم بذات الله وبصفاته وأسمائه، وكذا العلم بأحكام الله إذا حصل معه العلم بالله، فكلما انكشف الحجاب عن القلب كان أقرب إلى الرب، وانكشف الحجاب يكون على قدر التخلية والتحلية، فبقدر ما يتخلّى القلب عن الرذائل، ويبعد عن القواطع والشواغل، ويتحلّى بأنواع الفضائل، ينكشف عنه الحجاب ويدخل مع الأحباب، وبقدر ما يتراكم على القلب من الخواطر والشواغل، ويدخل عليه من المساوئ والرذائل يقع البعد عن الله، ويطرد العبد عن باب الله، فلا يدل على كمال العبد كثرة الأعمال، وإنما يدل على كماله علو الهمة والحال، وعلو الهمة على قدر اليقين، وقدر اليقين على قدر المعرفة، والمعرفة على قدر التوجه والتصفية، والتوجه تابع للقسمة الأزلية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». [البحر المديد، 175/1].

أستخرج من النص علاقة التخلية والتحلية بالكشف.

الإعداد القبلي

أعد ترجمة مختصرة للشيخ ابن عجيبة -رحمه الله-.